آثار فلسطين (١)

يؤمل السائح ان يرى في فلسطين كثيراً من آثار الاسرائيليين و بقايا القصور التي كان ملوكهم يقيمون فيها حتى اذا جال في انحائها عجب لكثرة الآثار الباقية من عهد الرومان وغيرهم من الامم مع قلة الآثار اليهودية . ولعل السبب في ذلك ما كان من حرص الرومان على طمس معالم المدنية اليهودية واستبدالها بمظاهر التمدن الروماني . فانك لا ترى في الغالب الاَّ بقايا القنوات والطرق والجسور والحمامات والمراسح الرومانية

ولا يزال في بطن الارض كثير من الآثار المهمة يحول دون الكشف عنها مصاعب جمة كجهل الاهلين وكثرة النفقات وصعوبة الحصول على الاذن من الحكومة . زد على ذلك ان المعاهد الدينية تغطي اكثر البقع التاريخية المهمة وهيهات ان يسمح لاحد بان يقتلع منها حجراً او يثير ترابها

ولكن عزيمة العلم لا تثبطها المصاعب مهما تعددت وتنوعت . فقد كشف الباحثون في السنوات الخمس الاخيرة كثيراً من آثار اليبوسيين والكنعانيين والعبرانيين والرومانيين

اريحا

كشف الدكتور سلين النمسوي الذي ارسلتهُ احدى الجمعيات الالمانية موقع اريحا القديمة وهي المدينة التي تذكر التوراة سقوط اسوارها امام الاسرائيليين باعجوبة . ولم يحفر في الارض الاَّ ثماني اقدام حتى اتى على سورها القديم

وفي بناء هذا السور ما يدل على براعة البنائين في ذلك العهد . وهو ثلاثة اقسام فالقسم الاسفل مزيج من الحصى والتراب مدَّ على الصخر مباشرة وعلوهُ اربعة اقدام . والقسم الاوسط مبني من حجارة صغيرة غير مهذبة ووجههُ الامامي غير عمودي بل مائل ويبلغ علوهُ عشرين قدماً وسمكهُ من ستة اقدام ونصف الى ثمانية اقدام والحجارة في اعلاهُ اصغر منها في اسفلهِ . وقد أُتقن بناؤهُ ومدَّ فيهِ كل ثقب يمكن للعدو المحاصر ان يستفيد منهُ . ويقوم القسم الاعلى او السور الحقيقي على هذا وهو مبني باللبن و يبلغ علوهُ في بعض الاماكن ثمانية اقدام ولكن يظهر انهُ كان اعلى من ذلك كثيراً

(١) معربة بتصرف من مقالة لمرولد شبسون في مجلة سير العالم الانكليزية

وطول السور الاصلي نحو ٢٧٠٠ قدم ولكن لم يكشف منهُ الاَّ ١٣٥٠ قدماً . وفي الجهة الشمالية ثغرة كبيرة يظهر ان عدوًّا فاتحًا ثغرها

وقد استلفت هذا الاكتشاف الانظار اذ يحتمل ان يكون هذا هو السور الذي احاط بهِ يشوع بن نون برجالهِ . وحتى الآن لم يجزم في ان هذه الآثار بقايا مدينة اريحا القديمة لان في التوراة كلامًا صريحًا على ان يشوع احرق المدينة واخربها لكن هذه الاسوار لايزال قسم كبير منها ماثلاً لم يصب بضرر كبير

ووجد في انقاض هذه المدينة سُرج وصفائح وكؤوس واباريق وعبارات واجران وارحية من البرنز والحجر . وبعض هذه الآنية متقن الصنع وبعضها لا يفضل ما كان يعملهُ الناس في اول عهدهم بالحضارة . وكُشفت بقايا بعض البيوت وارضها مطلية بالطفال ووجدت آنية فيها اجسام اطفال مطمورة في هذه المساكن وعُثر على كتابات عبرانية قديمة

وكُشف ايضًا قسم كبير من السور الداخلي من الجهة الداخلية وفيهِ ابراج منيعة على زواياهُ . ووجدت اتقاض بيوت كنعانية خارج السورين على منحدر التلة الشمالي وبعضها متصل بالسور يذكر المتأمل بوصف بيت راحاب الذي لجأ اليهِ جواسيس العبرانيين . ويفصل بين غرف البيوت جدران من الطين وفيها مواقد لا تزال ماثلة . وهناك مصرف للماء لا يزال على حالهِ الاصلية

ويظن ان هذا المنحدر بقي آهلاً بالسكان عامراً بالبيوت من نحو اثني عشرة قبل الميلاد الى ما قبل ابتداء التاريخ المسيحي بقرون قليلة . وقد وجدت هناك خمسة سلالم كبيرة درجاتها من الحجر ويرجح انها اقيمت بعد ان خربت المدينة واصبحت الاقسام المرتفعة منها كروماً وبساتين

وكُشف على مقربة من ذلك المكان نحو خمسين بيتاً يظن انها كانت قرية مجاورة للمدينة ويظهر انها لم تقم الاَّ قبل الميلاد بنحو ٢٠٠ سنة . ولا يزال احد هذه البيوت ماثل الجدران وهو دار غير مسقوفة فيها مقعد للجلوس وغرفة طويلة ومطبخ لهُ باب يخرج منهُ الى الدار حيث لا يزال اناء الماء في مكانهِ

السامرة

وكُشف في السامرة قصر الملك اخآب وهو اول قصر لملك يهودي وجد حتى الآن . ووجد فيهِ اشياء كثيرة منها قطع من الخزف وكتابات تحتوي كثيراً من الاسماء الواردة في التوراة كاليشع وآسا وناثان وعزا وشيا وابيعازر وورد فيها ذكر كرم يظن انها كرم نابوت الوارد ذكرهُ في التوراة

ويجدر بنا في هذا المقام ان نأتي بلمحة اجمالية عن تاريخ السامرة :— لما مات الملك سليمان نحو سنة ٩٣٠ ق م انقسمت مملكتهُ الى قسمين مملكة يهوذا ومملكة اسرائيل . فبقيت اورشليم قاعدة الاولى واتخذ ملوك الثانية مدينة شكيم (نابلس) عاصمة لهم

ثم انتقل ملوك اسرائيل من شكيم الى ترصة لعدم حصانة الاولى . ولما ملك عمري ترك ترصة وابتنى لهُ مدينة على اكمة تبعد ستة اميال عن شكيم ابتاعها بوزنتين من الفضة من رجل يقال لهُ شامر (ودعيت المدينة سامرة باسم شامر) واقام من حولها سوراً فاصبحت منيعة جدًّا

وارتفاع هذه الاكمة عمَّا يحيط بها من الاودية ٤٠٠ او ٥٠٠ قدم وتعلو عن سطح البحر نحو ١٤٠٠ قدم . وتطل على البحر المتوسط من جهة الغرب وعلى جبال واودية جميلة من الجهات الاخرى

ولما كان محيطها نحو ميلين وربع في ايام هيرودس الكبير الذي كان يقيم فيها ولا تزال آثار سورها ظاهرة . وفيها صهاريج كثيرة كان الناس يجمعون فيها ماء المطر اذ لا ينابيع في الاكمة ولكن على مقربة منها في الجانب المقابل من الوادي نبع ماء عذب . وتربتها جيدة كتربة الآكام التي حولها وتنمو فيها الآن الزيتون والتين والخبوب

وبقيت السامرة قاعدة ملك اسرائيل الى ان فتحها الاشوريون سنة ٧٢٢ قبل الميلاد . واقام فيها اخآب بيت العاج وهيكلاً للبعل باشارة زوجتهِ ايزابل فاخربهُ ياهو من بعده . وتوالت عليها غزوات كثيرة وخربت مراراً من عهد عمري الى عهد هيرودس . وبلغت ذروة مجدها وجمالها في ايام هيرودس الكبير الذي اقام فيها من سنة ٣٧ ق م الى سنة ٤ ق م

وجدد هيرودس بناءها وزاد في فخامتها واطلق عليها اسم سبسطية نسبة الى الامبراطور الروماني اوغسطس . وشاد فيها هيكلاً كبيراً وبالغ في تحصينها . وفيها رقصت سالومة امام هيرودس في قصره ثم طلبت منهُ راس يوحنا بايعاز من امها بعد ان وعدها ان يعطيها ما تشاء

وكان اليشع النبي يقيم فيها وقد كان فيها لما اتاهُ نعمان السرياني . وجاءها النبي ايليا وبكَّت كهنة البعل

ولم يبقَ من هذه المدينة الزاهرة الأَ اطلالـــ وركام من الردم . وعلى منحدر الاكمة الشرقي قرية صغيرة يقال لها سبسطية لا يزيد سكانها على ٨٠٠ نفس

وسنة ١٩٠٨ نالت جامعة هارفرد الاميركية اذنًا من الحكومة العثمانية في الحفر هناك وكان من شروط الاذن ان تعيد المكان الى حالهِ قبل الحفر . فكان القائمون على العمل

يكشفون جانباً من الآثار ثم يطمرونهُ بالتراب الذي يستخرجونهُ من قسم آخر بعد ان يصوروا ما اكتشفوهُ

واهم الآثار في سبسطية قصر على قمة الاكمة تشغل مساحتهُ نحو فدانين من الارض ولا شك في انهُ قصر عمري واخآب . والساف الاسفل من الحجارة في الاساس منزّل في الصخر تنزيلاً حتى ان الصخر يحيط بهِ من جهات ثلاث وقد عثر فيهِ على اناء من الرخام عليهِ كتابة مصرية من عهد الملك اسوركون الثاني فثبت ان الآثار بقايا القصر الذي كان ملوك اسرائيل يقيمون فيهِ

ويظهر انهُ كان بناء فخماً ولا يزال شيء من جدرانهِ ماثلاً ويتبين فيها نوعان من البناء الواحد اكثر اتقاناً من الآخر مما بعث على الظن ان اخآب زاد في قصر ابيهِ عمري واستخدم لذلك جماعة من البنائين الحاذقين

وعثر على ٧٥ قطعة من الخزف عليها كتابات بالخط العبراني القديم الذي يشبه الخط الفينيقي وقد خطت بالحبر واقلام القصب مما يبين طريقة الكتابة في ذلك العصر وتفصل بين الكلمة والاخرى بنقط او خطوط فاصبحت قراءتها سهلة جدًّا . ويظهر ان هذه الكتابات كانت على جرار الزيت والخمر وفي كل منها تاريخ واسم المكان الذي اتي بالخمر او الزيت منهُ[1] وهذه بعض منها

في السنة العاشرة . من ابيعازر . لشمريو . جرة من الخمر المعتقة من آسا . من التل
في السنة العاشرة . لشمريو . من التل . جرّة من الزيت الجيد
في السنة العاشرة . خمر من كرم التل . جرّة من الزيت الجيد
في السنة العاشرة . من ساق . لجاديو . جرة من الزيت الجيد

ويذكر في اكثر الكتابات اسم صاحب الجرة ولكن بعضها خالٍ من ذلك فيرجح انها كانت للبلاط الملكي . ويرد فيها اسم « التل » او « كرم التل » كثيراً مما يدل على انهُ كان لهذا الكرم شأن كبير في تلك الايام وليس في التاريخ كلهِ اشهر من كرم نابوت اليزرعيلي الذي اغتصبهُ منهُ الملك اخآب ولذلك يرجح ان هذا الكرم هو المعني « بكرم التل »

وهناك اربعة انواع من البناء يهودي وبابلي ويوناني ورومان . ومن الآثار الرومانية سلم من الحجر عرضهُ ثمانون قدماً ينزل منهُ الى مذبح وبناء يظن انهُ كان هيكلاً اقيم اكراماً للامبراطور اوغسطس وجد فيهِ تمثال فقد رأسهُ واطرافهُ ويرجح انهُ تمثال قيصر وقطعة

(١) وقد ذكرنا كثيراً منها في الصفحة ٥١٨ من المجلد الثامن والثلاثين من المقتطف

نقود من ايام هيرودس استدل منها على ان هذه الابنية اقيمت في عهده

وفي جانب الاكمة الشرقي بقايا كنيسة رومانية كبيرة . ولا يزال هناك دكة على هيئة نصف دائرة وقد بنى عليها العرب وتظهر تحتها آثار معابد اقدم منها

وتمتد ثلاثة صفوف من الاعمدة من باب المدينة الغربي الى هذه الكنيسة في شرقي الاكمة . ولا يزال اكثرها في مكانهِ منتصباً او مائلاً ولكن تيجانها ذهبت كلها . والظاهر من الانقاض ان المدينة كانت اكبر من اورشليم كما هي داخل السور في يومنا هذا وانها كانت زاهية بالقصور والمباني الفخمة والابراج الشاهقة

ولدى الحفر حول الباب الغربي وجدت ثلاثة انواع من الآثار نوع روماني ونوع يوناني ونوع عبراني في طبقات يعلو بعضها بعضاً . وظهر من وضع الباب القديم انهُ كان يوصل الى قصر الملك وان الرومان غيروا فيهِ فاصبح يوصل الى محل الاجتماع في شرق الاكمة توًّا بالمرور في شارع الاعمدة المتقدم ذكرهُ

ولا يزال قسم كبير من الانقاض مطموراً في التراب و يؤمل البعض ان يجدوا اشياء كثيرة ذات قيمة تاريخية وعلمية بمتابعة الحفر . وقد عثروا على غلاف كتاب من الاجر فيهِ جانب من اسم الشخص الذي ارسل اليهِ الكتاب فكان هذا باعثاً على احياء الامل بان توجد في الردم رسائل مما كان يستعمل في ذلك الوقت . والكتابة على الغلاف اشورية وهذه اللغة كانت مستعملة في المراسلات بين مصر وفلسطين في تلك الايام

القدس

وجدت في القدس مقاييس يهودية بالقرب من المكان الذي كان فيهِ بيت قيافا مما كان مستعملاً في ايام المسيح . ولهذا الاكتشاف اهمية كبيرة لان المقاييس اليهودية كان اكثرها مجهولاً لا يعرف بالتحقيق رغماً عن اجتهاد الباحثين

ومقاييس السوائل التي ورد ذكرها في التوراة هي الحِّ والقبّ والهين والبثّ ويلحق بها الحمر لكنهُ كان في الغالب يستعمل في قياس غير السوائل . وقد وجدت هذه المقاييس كلها وكثير غيرها من مقاييس غير السوائل . واتضح ان المقاييس اليهودية تغيرت بعد السبي (سنة ٦٠٦ ق م)

وحلَّت بذلك بعض المسائل الخلافية في المتحف البريطاني مثلاً كتابة اشورية يقال فيها ان حزقيا ملك يهوذا قدم لصاحب بابل ثلاثين وزنة من الذهب وثمانمئة وزنة من الفضة وحجارة كريمة وعاجاً الخ لقدمة سلم وفي التوراة انهُ اعطاهُ ثلاث مئة وزنة من الفضة .

وقد كان البعض يظنون ان سنحاريب بالغ في تقدير الجزية حبًّا بالجاه والافتخار . لكن ظهر الآن ان الوزنة الاشورية اصغر من الوزنة اليهودية فزال الاشكال وسهل التوفيق بين الروايتين

ومن الذين تولوا الحفر في القدس الكبتن باركر وأهم الاغراض التي كان يسعى اليها معرفة موقع مدينة داود الاصلي واكتشاف قبر داود وتتبع القنوات التي تحت جبل عوفل

فالغرض الاول تم لبارکر لانهُ وجد من الآثار ما يثبت لهُ ان المدينة التي اخذها داود من اليبوسيين كانت على جبل عوفل وهو لسان من الارض يمتد جنوبًا من الموريا والارض التي كان الهيكل مبنيًا فيها . ووجد من قطع الخزف ما يدل على ان عمارة اورشليم بدأت قبل الميلاد بنحو ثلاثة آلاف سنة وليس بالف وخمسمائة سنة فقط كما كان يظن

في جبل الزيتون

حفر الرهبان الدومينيكيون في جبل الزيتون فاتوا على بقايا جدران الكنيسة التي اقامتها الامبراطورة هيلانة فوق المغارة التي جاء في التقاليد ان المسيح كان يعلم تلاميذهُ فيها . وكانت هذه الكنيسة تعرف باليونا وقد هدمها الفرس في القرن السادس للميلاد ولم يهتدَ الى البقعة التي كانت فيها الاَّ بعد ان كشف عنها الدومينيكيون على ما تقدَّم ووجدوا المغارة نفسها

وسنة ١٩٠٧ حُفر في البقعة التي رُجم فيها اسطفانوس فاكتُشف اساس الكنيسة التي اقامتها الامبراطورة يودوكسيا في القرن الخامس للميلاد ووجد فيها لوح من الرخام عليهِ كتابة ويظن انهُ كان في مدخل الكنيسة . واقيمت كنيسة جديدة على اساس القديمة وعندستها وضعت فيها قطع الفسيفساء والآثار الاخرى التي عثر عليها في ذلك المكان

واكتشف باب في خان الزيت الى الشرق من كنيسة القبر المقدس يظن انهُ احد ابواب الكنيسة التي بناها قسطنطين او احد ابواب السور الذي كان يحيط بالمدينة . وقد اتخذ الذين يذهبون الى ان موقع القبر الحالي خارج السور القديم هذا الاكتشاف دليلاً على صحة قولهم

ونص الانجيل صريح على ان القبر كان خارج المدينة فلذلك كان فريق يقول ان القبر الحالي ليس قبر المسيح الاصلي لانهُ داخل المدينة . فاذا ثبت ان هذا الباب المكتشف من بقية السور الثاني لم يبقَ ريب في ان القبر الحالي كان خارج المدينة